ألـــبوم صـــور

سارة المغازي

قصص



دار اكتب للنشر والتوزيع

ألبوم صور

ألبوم صور

قصص

سارة المغازي

تصميم الغلاف:

المراجعة اللغوية: ضحى صلاح

رقم الإيداع : ٢٠١٣/٢٢١٩

I.S.B.N:٩٧٨- ٩٧٧- ٤٨٨- ١٨٩- ٣

دار اكتب للنشر والتوزيع

OKTOB.NET

الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور،المرج الغربية، القاهرة .

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ – ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

مكتبة اكتب : ٤٠ ش أحمد قاسم جودة من ش عباس العقاد ،خلف سيراميكا كليوباترا ، القاهرة .

هاتف : ٠١١١٤٣٢٨٥٢٥

E – mail :daroktob١@yahoo.com

دار أكتب للنشر والتوزيع : Facebook

الطبعة الأولى ، ٢٠١٣م

إلى أمي وأبي

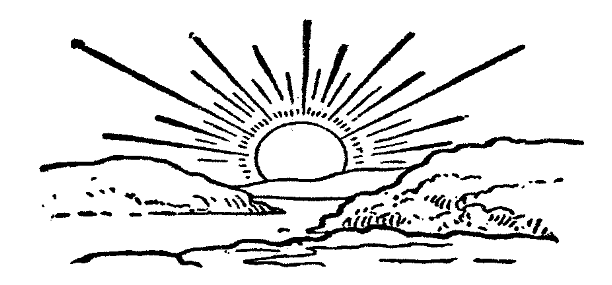
إلى أعز أصحاب وأخوات في الدنيا

شكرًا على كل حاجة :)



(لقد أنفقت ثروة طائلة في السفر إلى شواطئ بعيدة؛

فرأيت جبالًا شاهقة ومحيطات لا يحدها حد



ولكني لم أجد متسعًا من الوقت لأن أخطو بضع

خطوات قليلة خارج منزلي

لأنظر إلى قطرات الندى

على ورقة واحدة من أوراق العشب)



طاغور...

يقولون أن العدسة ذكية

لا تصور إلا لقطات من حياتنا أحببناها ونريدها أن
تبقى معنا..

لكن تلك التي نريد نسيانها...

فهي كفيلة بجعلها قاتمة لا تظهر من تفاصيلها
شيء أبدًا ...

هكذا... تمرُ اللقطة وراء الأُخرى...

حتى نحصل على أغلى ما في حَياتنا...

ألبوم صور

أخذت تراقب والدمًا وهي تخرط البصل في صمتٍ ثقيل دون أن تذرف عينيها دمعة واحدة، ابتسمت في أعماقها متذكرة آخر مرة خرطت فيها ذات البصل؛ لقد ملأت الدنيا نحيبًا وعويلًا للدرجة التي قرع فيها جيرانهم الجرس متسائلين عمن قُتل في هذا البيت؟... إن ذاك اللحم الملقى على المائدة أمامها يُنذر بليلة طويلة في التقطيع والفرم... لكن يبدو أن لأمها رأى آخر؛ فقد كانت يدها ثابتة على السكين، تُقطع اللحم كما لو كان فراولة خرجت من الحقل للتو واللحظة، لا تدري من أين تأتي أمها بتلك الأعصاب الحديدية، كيف تتحمل ذلك المنظر!.. إنها في كل مرة تمسك فيها السكين لا تتوقف يديها عن الارتعاش وينطلق خيالها كي يحكي لها عن ذلك الأصبع الذي جُرح وانفجر منه الدم في كل مكان فتهدي السكين لأمها عن طيب خاطر؛ مُعلنة عن حقيقة طالما رددها التاريخ "إدي العيش لخبازه"... عظيمة هي تلك الأم، لقد احتفلوا بعيد ميلادها الأسبوع الماضي، ووضعوا فوق كعكتها خمسون شمعة.. كعادة أي امرأة في تلك المواقف كانت لتزيل عشرون منهم على الأقل معلنة للناس أنها مزحة طريفة من أبنائها اللطاف؛ لكنها لم تبدِ أي مقاومة؛ لقد همست للشموع وهي تُطفئها أنها قد استسلمت، ورفعت الراية البيضاء للزمن منذ أمدٍ بعيد.

ذات مرة كانت تُقلب ألبوم صور العائلة، وتضحك على هذه الصورة وتتعجب من تلك.. كم كانت تبدو رائعة في بعضها حمقاء في معظمها؛ صورتها وهي تركل كرة أخيها بغضب، ثم صورتها وأخيها يركلها هي في المقابل.. لقد كانت أمها تقص شعرها كالأولاد، وجعلت الناس لا يكادون يميزون بينها وأخيها من منهما الولد ومن منهما الفتاة.. وتلك صورة لها وهي تبكي وفي ذات الوقت تنظر لكعكة عيد الميلاد؛ أخذت تفكر من هو ذلك المجرم الذي جعلني أبكي في يوم ميلادي؟!.. أم إن ذلك كان من شدة الجوع!.. واستمرت على ذلك المنوال حتى استوقفت ضحكاتها تلك الصورة.. كانت لشابة فتية جميلة تكاد تكون في العشرين من عمرها.. تجلس على صخرة ضخمة وقد أخذ البحر ينادي عليها وهي توليه ظهرها، جرت إلى أمها تسألها: أيوجد في العائلة من هي بهذا الجمال! من هي؟! وكيف لم تحكوا لي عنها من قبل؟!.. لم تشعر سوى بأمها تلتقط الصورة من يدها وعيناها تترقرق بالدموع؛ لم تفهم سر تلك الدموع في حينها.. ظننتها أخت لها قد ولدتها أمها ثم اختفت ولم يسمع عنها أحدٌ شيئًا، وقبل أن تقرر أن الحسين هو النقطة الأولى التي ستبدأ منها بحثًا عن توأمها المفقودة أسكتتها أمها بكلمة واحدة : (تلك هي أنا).. عندها فقط فهمت...

فهمت أن تلك الصورة لم تكن سوى مرآة لأمها ولكن قبل ثلاثين عام.. أن تلك الفتاة التي أخذ هواء البحر يلاعب شعرها الفاحم الجميل، وابتسامتها تغازل الكاميرا في رقة هي ذاتها تلك

العجوز الجالسة أمامها وقد تقوس ظهرها وغزا الشيب رأسها..
عجبت لك يا زمن!

حينها أخذت تفكر.. كم من الليالي يا أمي نمت بجوارك ونظري مُعلق إلى السقف وأخذت أحكي لك عما رأيته وسمعته، عما أحس به وأقلق منه.. عن ماضيّ وحاضري وأحلامي ومستقبلي.. كنت تستمعين لي وكأنك ترين الدنيا بعيني وتسمعينها بأذني.. ثم تأخذي يدي المضطربة برفق بين كفيك لتخبريني أن كل شيء على ما يرام، وأنك ستظلين دائمًا بجانبي تحميني من الدنيا كلها؛ لكني في المقابل لا أذكر كم مرة نظرت إليك بفضول وسألتك عن أيام الصبا والشباب ... وإذا فعلت وظهر في عينيك بريق الذكريات وحن لسانك للخوض فيها أخذت تحكى لي عن ومضة أو ومضتين ثم تتنهدين وتنهين حديثك بأنها أيام مضت كنا نحن أجمل ما فيها، كلا يا أمي؛ بالتأكيد كان هناك ما هو أكثر منا في حياتك.. بالتأكيد حلمتِ يومًا ما.. ضحكتِ وبكيتِ يومًا ما.. كان لك أصدقاء وأقارب تحبينهم ويحبونك، كان هناك مصيف تذهبين إليه وتسعدين بالعوم في مياهه.. كانت لك مدرسة ومعلمين تحبين بعضهم وتكرهين أكثرهم.. كان لك أمًا وأبًا وأخًا عاشوا معك سنون طويلة وكانت لكِ معهم ذكريات وحكايات؛ لكنك يا أمي تصرين أن تخبرينا أننا كل حياتك.. تصرين أن تختزلي حياتك بحلاوتها ومرها

فيّ أنا (ربما الأمر يستحق) وفي أخي (تراجعت عن قولي السابق)...

حسنا لكِ ما تشائين...

لكن تذكرى أنه أنت هو أنا وأنا هو أنت...

أنك حينما تريدين أن تنظري لمرآة نفسك منذ ثلاثين عامًا فيجب أن تنظري إلى لا للصورة...

فأنا روحك وجزء منك ومن أحلامك وكيانك...

وإذا أردت يومًا ما أن تحكي لإنسان عن كم أحببت الحياة وكم هي ذابت عشقا فيكِ...

سأكون أنا أول من يهتم لسماعِ ذلك...

ليس سوى قلم



أخذته الحيرة من يده وألقت به في غياهب الظلام، ظل ينظر إلى السماء في تلك الليلة، ويتأمل ثم يرجع ببصره إلى ذلك الشارع الطويل العامر بالناس في منتصف الليل... يكاد ابن آدم لا يشعر أن هناك مخلوقات أخرى في الكون تريد أن تنام في هدوء وتطفئ قناديل الشارع.. أخذ الكاتب يلتفت هنا وهناك لعله يجد شيئًا ينشط ذهنه ويُجري قلمه.. ذلك القلم الذي طالما رافقه في دربه وسفره وكل أحواله، ولكنه الآن –ودون أن يدري– وجده يفارقه ويجلس على جانب الطريق مُعلنًا أنه أوان أن يرتاح قليلًا... لم يناقشه الكاتب كثيرًا وأخبره أنه يود أيضًا لو يرتاح، وعندما يستعد كلٌّ منا سنكمل الرحلة معًا كما بدأناها معًا... لكن حقيقة الأمر كانت غير ذلك؛ إن أفكارًا كثيرة تدور برأسه... تتلاطم ببعضها لكنها لا تكون أبدًا موجة عالية قادرة أن تُلامس سقف عقله، وتنيره...كان دائمًا ذلك البحر متجددًا وثائرًا؛ يمده بأمواج طالما أبحر فيها مع قلمه، لكنه الآن هدأ وسكن، ومر وقتٌ طويل منذ أن ركبا معًا تلك الموجة الأخيرة... نعم أنه يذكرها جيدًا... لقد فاقت ما سواها، وظلت الناس تتحدث عن جمالها وعظمتها لفترة طويلة... أخذ يبتسم

ويمني نفسه أن يومًا ما سيعود البحر كما كان، وما هي إلا الرياح تذهب وتجيء فتؤجج موجاته الساكنة... عندها سيبحر هو وقلمه ويرتفعا إلى عِنَان السماء من جديد...

أثناء ما كانت تلك الأفكار تركض في عقله؛ أفزعها صوت صرخة عالية آتية من آخر الشارع... لكنه اعتاد تلك الأصوات فطالما بنت حواء تسكن على وجه الأرض ستظل تشق سماء الكون بصرخاتها على الفاضية والمليانة، أنها لن تعدو ان تكون فتاة مدللة قد ركض صرصور مسكين أمامها فأخذت تستنجد بالدنيا كلها أن تعالوا وافتكوا به، والمسكين لا ذنب له في الحياة سوى أن شواربه تثير اشمئزازها... أو ربما كانت فتاة قد تذكر أهلها أنه حانت ساعة منتصف الليل ولم تعد بعد فأخذوا يقلبوا الدنيا عليها، وإذا بها تدخل عليهم بكل برود... وبالطبع لابد من أن يظهر ذلك العملاق رافعا يده ويهوي بها على وجهها... أجاء الآن ذلك (الحمش) في منتصف الليالي كي يكتشف أنه يمكث في منزله ابنة بحاجة لرعايتها وتوجيهها... أو ربما تكون في النهاية طفلة في الثانية من عمرها قد أخذت تملأ الدنيا صراخًا وعويلًا لا لشيء سوى أنها تتدرب على ما يفعله بنات جنسها، لا يهم... ماذا يعني ذلك على أيه حال!... ومنذ متى كانت الصرخات والآهات تُحرك الناس؛ لقد انتهى ذلك العهد منذ زمنٍ طويل... ها هو الشارع كما كان منذ دقائق هادئًا يمشي

كلا في طريقه غير آبه بما سمع؛ وإن انتبه فمن باب إشباع الفضول، وأخذ العبرة ومين شاف بلاوي الناس...

لقد اعتاد أن يتزل الشارع كل يوم... ينظر في وجوه الناس، يحاول ان يقرأها، يستشف أعماقها؛ لكنه لم يجد سوى وجوه صماء قد رسم البؤس خطوطه عليها... كلا منهم يمشي هائمًا وكأنه يُقاد بالأغلال إلى مصير يعلمه جيدًا ولكن لا يستطيع منه فكاكًا، وعندما كان في ذروة تأمله أصابته قرصة برد، حاول أن يحتك بالناس لعله يجد الدفء بينهم فإذا به يرتعد من قسوهم، ووجوههم التي أبت أن تستدير إليه ولو بنظرة عابرة، أحس بالوحدة رُغم الآلاف البشر من حوله فقفل راجعًا لعل الصور الصماء التي تملأ جدران بيته تبعث في روحه الحياة وفي عقله الأفكار أكثر من هؤلاء.

تأمل الصور... ما أجمل الماضي وأحن ذكراه، نعم هو الوحيد القادر على إقناع قلمه كي يعود للسير معه مرة أخرى... بالتأكيد سيجد معه كل ما يبغي من أفكار وحكايات؛ لكن ألم يكتب عن كل هؤلاء قبل ذلك؟!.. لقد أمسك بكل صورة وأخذ يروي قصتها، وزاد فيها وأنقص منها حتى غدت رائعة لا تكاد تحتاج إلى أي تعديل آخر... ففيم سيكتب إذن!... حتى وإن استطاع أن يستغفلها أن تعالي أُلبسك تاجًا جديدًا يُزيدك حسنًا وجمالًا أهو قادر أن يخادع قلمه أيضًا؟!.. إنه لن يلبث أن

ينظر إليه في احتقار، وينزع ذلك التاج المتكرر الأخرق ثم يقرر الرحيل بغير رجعة... كلا ليست بفكرة جيدة؛ ففي النهاية هو قلمه الذي مضى معه طوال عمره ويعنيه الكثير أن يظل على ذلك الاحترام المتبادل بينهما.

إذن ماذا يفعل؟... لا أحوال ناس تبعث في نفسه أي شيء، ولا ذكريات تلعب بعقله، وتحرك أمواجه الساكنة، أهو الخيال إذن؟!... ذلك العالم الذي انفصل عن الزمان والمكان والحقيقي والمعقول... ذلك العالم الذي حوا الأميرة مع وحشها وجعلهما عشاقًا في تحدٍ لكل قوانين وفيزياء الحياة... الذي جعل الناس تطير بين حدود الزمان كي تغير الغد وتستقر في أحضان الماضي... إن هذا مما يعشقه قلمه كثيرًا؛ فهو يجعله يلهو في حرية وسعادة دون أن يكون مكبلًا بقيود المنطق والكيف... حسنًا يبدو أنه توصل إلى شيء يُرضي جميع الأطراف...

فليقفل راجعًا إلى قلمه الذي تركه على قارعة الطريق

وليستعد لرحلة طويلة أخرى يجهل أين ستنتهي...

ولكنه يعلم جيدًا أنه سيكون مع ذلك الرفيق الذي طالما أحب رفقته وعشق المسير معه...

وهذا يغنيه عن الدنيا بأسرها...

وكان ولدي الثمن

لملمت ملابسه المبعثرة في كل مكان... كم يهوى أن يُتعب ظهرها ويُذهب صوتها من كثرة الصياح فيه أن رتب غرفتك، فالخنزير قد أبى على نفسه أن يمكث فيها؛ فما يكون منه سوى أن يزمجر تحت أطنان من البطاطين: (الرقم المطلوب مستغرق مؤقتًا في النوم... الرجاء الصياح في وقت لاحق)... فتضحك من أعماق قلبها، وتندس تحت الدثار بجانبه وتحتضنه بشدة... كم تحبه وتعشق التراب الذي يمشي عليه؛ فمنذ أن مات زوجها وتخلى عنها الناس وهو لا يزال قطعة طرية من اللحم أيقنت أن ليس لكلا منهما في تلك الدنيا سوى الآخر... إنه عندما تظلم الدنيا أمامها فستلتمس يديه الصغيرة كي تبكي بينهما، وتكتسب قوة قادرة أن تهزم الكون لو جرؤ أن يقترب منهما... كان كقطعة الحلوى التي التصقت بها تلازمها في كل مكان تذهب إليه... عندما كان يحادثه الناس يختبئ وراءها يبتغي الحماية والأمان، كم كان خجله مضحكًا وعفويًا... إنها لتعجب من أين أتته تلك الجرأة بعدما شب عن الطوق، وصار لسانه ينطلق عاجزة عن إيقافه... لكنه الشباب الذي ما قدر أحدٌ يومًا على فك شفرة حماسه واندفاعه.

أحيانًا ما كان يقبل يديها، وأحيانًا أخرى كان يدخل البيت مُغلقًا باب حجرته من دونه، ومغلقًا معه السعادة التي تتملكها كلما ملأت عينيها منه... كانت تشعر بكل ما يختلج في صدره من هم؛ فمنذ أن لفظته جامعته وهو لا يكاد يقبل بوظيفة يتقدم إليها... فلا بد أن يتقن كذا ويعرف كذا، ومن أين له كل هذا وهو لا يكاد يتحصل على مصروف يقضي به يومه... كان كلما رُفض زاد اقتناعًا بأن تلك البلد قد تبرأت منه، وأنه قد آن الأوان البحث عن حضن آخر يضمه إليه، ويعينه على الحياة... سألته ملتاعة: وماذا عني أنا!.. ألست أمك!.. أستجد من هي أحن عليك مني؟!.. أستجد من يحبك ويتمنى أن يموت لو كان هذا معناه أن تمكث في الدنيا يومًا آخر!.. وكانت تسكب الدموع التي طالما عرفت أنها وسيلة إقناع لم تفشل معه يومًا ما؛ فيستسلم عازمًا اليوم الآخر على الخوض في تجربة فاشلة أخرى لعل وعسى.

لا لم تكن أنانية حينها.. لا يجرؤ أحدٌ أن يتهمها بذلك؛ وكيف يقولون هذا وهي التي عاشت جارية تحت قدميه، وأغلقت من دونها متع الحياة وزينتها من أجل أن تراه رجلًا يملأ السمع والبصر. إنهم لا يعلمون كم تحبه.. إنها تخاف عليه من نسمة الهواء لو قررت أن تكون قاسية عليه... قولوا لي من يضمن سلامته!.. من سيطهو طعامه ويسوي فراشه!.. وإذا مرض ماذا ستنفعني الدنيا بأسرها لو لم يجد أحدًا بجانبه يمرضه

ويواسيه!.. فليذهب الناس والدنيا جميعًا، وليبقى تبني في أمان فلست أملك من الدنيا سواه.

ومرت الأعوام عامًا بعد الآخر، والوضع لا يتحسن إلا قليلًا.. فربما وجد ولدها عملًا لكن لا يلبث أن يتركه دون أن يبدي سببًا... لكنها بقلب الأم تدري جيدًا أنه لم يرض أن يُعامل كعبد بلا كرامة ولا حقوق؛ وهو الذي تربى طوال عمره ألا يطأطأ برأسه لأحدٍ من البشر.. دائمًا ما لامت نفسها كلما تذكرت قولها له وهو لا يزال يتعلم كلماته الأولى في الحياة: (كرامتك أغلى من الدنيا وما فيها.. أنت ابن آدم قد كرمك الله عن سائر الخلق فعش كريما رافع الرأس.. لا تجعل أحدًا يشعرك بأنك أقل من ذلك)... كم كانت غبية وقتذاك... لما لم تعلمه كيف يخضع للريح إذا اشتدت... كيف يتلمس جمال الحائط، ويظل بجانبه جاعلًا سائر الطريق لمن هو أشد قوة... لكنه قد سبق السيف العزل، وها هو ابنها يتكمد غيظًا كلما رأى ظالما يتجبر على خلق الله، يود لو فتك به ولا يمنعه سوى صراخها أن: (اتركه، ربنا أقدر عليه مني ومنك).. فيتركه استجابة لتوسلاتها ويرحل صاغرًا.. ثم ضاق الحال بهما واشتد الكرب؛ فما كان منها سوى أن رفعت يديها وبدعوة أم في جوف الليل قالت: ربي فك أسر ولدي وأرح باله وارزقه السعادة التي لا يشقى بعدها أبدًا.

حتى أتى ذلك اليوم.. سمعت صراخًا وعويلًا بالخارج، وطلقات نار عمياء لا ترى أمامها... جرت إلى حجرة ابنها تتلمس أمان يديه، سألته بذعر: (ما الذي يحدث!.. أهي القيامة قد قامت!)... فربت على كتفها وهدأ من روعها وأسرع إلى نافذة بيتهم.. وما هي إلا ثوانٍ حتى احمر وجهه، وانتفخت أوداجه.. إنها تعلم تلك الأعراض جيدًا.. تشبثت به بكل قوتها: (أرجوك يا بني لا دخل لنا بهذا).. نظر إليها والغضب يملأ عينيه : (يا أمي إنهم جنود ذلك الطاغية يذبحون الناس أحياء.. يا أمي لا أرضى أن أرى ذلك وأكتفي بالرجوع إلى فراشي كأن شيئًا لم يكن !.. أذلك ما علمتيني إياه!.. أتلك هي العزة والشرف الذي طالما ملأتِ قلبي بهما!.. لا والله يا أمي لأنصرن الحق حتى يكون له الكلمة في الأرض.. فلنعش أحرارًا وما عند ربنا خير وأبقى).

لم تره أكثر إصرارًا في حياته كتلك اللحظة.. قلبها يخبرها أنه جاد تلك المرة، أن لا دموع ولا كلمات ستجدي معه.. ملأت عينيها منه واحتضنته ودموعها تنهمر على وجهه، قالت له كلمة واحدة: (من أجل خاطري.. فلتنتبه لنفسك).. فقبل يديها وأسرع خارجًا.

لا تدري لما قلبها يدق بعنف هكذا!... لما عجزت ساقيها عن حملها فهوت تستند على أقرب مقعد يجاورها... مضت الساعة وساعتين وهي تبتهل وتدعو أن يارب ارجع ولدي

سالمًا... سمعت طرقات الباب فوثبت تفتحه بلهفة، وتستعد لاحتضانه كما لم تفعل من قبل؛ فما رأت سوى اثنين وقد حملاه إليها وجراحه تنبئها بالأسوأ.. أقعدوه وبيد مرتعشة لمست وجهه وقد أشرق بابتسامة طالما تمنت أن تراها على وجهه في حياته البائسة.. ابتسامه تخبرها أن:

اطمئني يا أمي، أنا الآن في أمانٍ.. لقد عشت حياتي أكره الظلم وأمقته، وطالما انتظرت أن تأتي تلك اللحظة التي أواجهه فيها لكني لم أكن مستعدًا لها يومًا، كان جبني وخوفي يحذرني، هو أقوى منك وسيرديك قتيلًا... ولن تجني سوى دموع أم لا ذنب لها سوى أنها تحبك أكثر من روحها وتحتمي بك من الدنيا كلها... أقنعوني بما عرفوه من حبي لك فتخاذلت...

لكني اليوم رأيت أناسًا ترتعد من الخوف وقد أخذوا يحتمون بظهري علهم يجدون الأمان... حينها رأيت وجهك وهو يخبرني: (أن يا بني لا تترك ضعيفًا لا تنصره؛ فإن ذلك من شيم الجبناء).. أنه قد استشرى الظلم وآن أوان تلك المواجهة، ذهبت إليه.. لم يكن قويًّا كما تخيلته؛ بل كان رعديدًا يحتمي خلف ألف جبان وجبان... سددت إليه طعنة فقتلته، وقتلت معه الظلم والشقاء الذي طالما تعذب الناس فيه دون أمل...

لكن من قال يا أمي أن الكرامة والحرية بلا ثمن...

وأزداد شرفًا وعزًا أنني كنت أنا الثمن...

أنا اليوم يا أمي أقطن في عليين...

وأنتظرك كي آخذ بيديك كما فعلت دائمًا...

لنعيش سويًا لا يُفرق بيننا شيئًا كما حلمنا طوال حياتنا...

تحب أم تحيا

إنها تنتظر سيارته كي تتحرك، تُطل من النافذة لعله يكون قد ظهر، تتساءل لِمَ هي واقعة في حبائله إلى هذا الحد!... ألأنه أبهرها بشهامته ورغبته في التخفيف عنها؟.. أم أنه أبدى اهتمامًا صادقًا خفق له قلبها؟.. كانت من قبله تسير في تلك الدنيا غير عابئة بمن حولها.. لم تتخيل أن يأتي اليوم الذي يلح فيه قلبها أن هلمي واسترقي النظر من النافذة فربما يظهر الآن.. أيعقل أن تترك قلبها يتلاعب بها هكذا وهي بنت الثلاثين وقد أخذت الناس تتحاكى عن ذكائها ورجاحة عقلها!.. أين هو منقذي من هذا كله!.. أين أنت يا عقلي؟!

منذ زمن بعيد رفع عقلها وقلبها راية الحرب بينهما؛ أي منا سيهزم الآخر ويستعبد أطرافك يُحركها كيفما يشاء!.. عقلها يخبرها أن دعك من تلك السخافات، وما عليك منه وقد ملأ قلبك بحلو الكلام ثم مضى!.. هل هذا حب أم فتنة تملكتكِ!.. هل الاثنان عندك واحد أم أنكِ تدركين الفارق بين الجمال والشر.. إنك تتعذبين الآن، هل يمكن للطهارة والجمال أن يؤلمان الإنسان هكذا؟!.. لا يا فتاة.. الشر هو ما يعذب الإنسان.. الشر هو ما يريده أن يبقى تعيسًا يملأ الحزن قلبه.. إن الحب الذي لا يجعلك سعيدًا ولا يجعلك تصحو كل يوم وقلبك يغرد

مع بلابل الفجر هو شر وفتنة، وما علاجها سوى أن تستعيذي منها وتنسيها، ثم لا يلبث ذلك العقل وبعدما أخذ يأتي بالحجج والدلائل ودخل عليها من كل مدخل أن باغته قلبها من حيث لا يدري وأوقعه أرضًا، وبعد أن كمم فمه وأحكم قيده صرخ في وجهها: أيتها الحمقاء.. إلى متى ستظلين تصغي إلى ذلك العقل الخرب!.. إنه لن يتركك سوى جسد يمشي على الأرض بلا روح!.. إن ذلك الفتى يهتم لأمرك حقًا، وما عليه أن رآك في محنة أن توقف، ولم يتركك إلا وابتسامة الرضا تشع من قلبك وعينيك.. لِمَ إذن ناديت عقلك وسمحت له أن يباغتني على غفلة بينما كنت أنا وأنت نسترق أجمل اللحظات من تلك النافذة، لو بك شيئًا من العدل لجعلت كلًّا منا يقف أمامك وبيده دلائله وبراهينه يدافع بها عن نفسه وعن قضيته، وأنا اليوم قضيتي محسومة وشاهدي موجود، إن عينيه نطقت بما لم يخبرك به لسانه، وأنتم معشر النساء تفهمون تلك الأمور جيدًا؛ أنما لو ظللت ترددين فربما يتملكه اليأس، ويرحل بغير رجعة، أنت دائمًا حائرة لأنك لا تصدقيني أو ربما تتمنين لو كنت صادقًا لكن عقلك الغبي لا يترك لك الفرصة حتى تتحققي من كلامي.. استمعي إليّ...

وفجأة ودون أن يشعر ذلك القلب، وهو في أوج حماسه وقد لقي استحسانًا من سيدته.. كان عقلها قد تخلص من قيوده، ووثب فوقه على غفلة، ضربه ضربًا موجعًا حتى سالت دماؤه

وأخذ يصيح به: يا جبان!.. تستغل ضعفها وتخاذلها كي تسمم ما بقى لها من ضمير! خذ هذا وذاك، وإياك أن تنهض مرة أخرى.

الفتاة تقف حائرة بينهما، لا تدري لمن تمد يدها، وودت لو أوجدت هدنة بينهما، لو تناقشا.. تفاهما.. اتفقا على حل وسط يريحها من العذاب الذي تكابده.. لكن هيهات أن يتصالح الماء والنار.. هيهات أن يتنازل أي منهما عن موقفه وصلابة رأيه.. ليس لها سوى أن تقرر هي أيهما ستصدقه.

أخذت تنظر إلى عقلها.. لطالما أحبته، لطالما أنقذها وأسعفها من كوارث كادت تودي بها.. لكن ما أشد قسوته! وصوته عالي، ولا يترك لها الخيار فيما تفعله.. افعلي هذا وإياكِ من ذاك.. لقد جاءت أيام كثيرة وقد ملت جبروته وسطوته عليها؛ لكنها تأتي اليوم الذي بعده فتخاف من فراقه لها أن تغرق فتؤثر السلامة معه عمن سواه.. ثم خفضت بنظرها إلى الأرض حيث يقبع قلبها مضرجًا في دمه.. مسكين أيها العزيز!.. دائمًا ما أقسو عليك ولكنك سبب عذابي ولوعتي.. وددت لو استطعت أن أقتلعك من جسدي وأُلقي بك فترتاح أنت وأنا.. لكن كيف سأكون حينئذ!.. كيف سأعيش في تلك الدنيا حينها وأنا لا أحب أحدا!.. لِمَ تعذبني.. ألست جزءًا مني!.. أليس سعادتك سعادتي وشقائك شقائي.. لِمَ تُصر أن تتصارع مع عقلي الذي هو أقوى منك، وأقدر عليك!.. لكن أتدري.. أعلم أنني من أعطيته الأمر والنهي، وجعلت له تلك السطوة.. أتعرف لماذا؟!.. لأن قوته نابعة من أنه دائمًا ما صدق معي.

معذرة يا قلبي..

يبدو أنني سأتركك هنا قليلاً وأذهب معه..

صدقني سوف تضمد تلك الجراح سريعًا، وتعود سليمًا كما كنت..

وعندما يأتي اليوم الذي أجدك فيه قويًا وحجتك داحضة..

سآخذ بيدك وأنا بنفسي..

من سيلكم عقلي الضربة القاضية..



سُلم إلى السماء

أخذت تسير بصعوبة لا تكاد تبصر أمامها.. ظهرها ينحني بشدة حتى يكاد يوازي الطريق.. عكازها يصعد ويهبط في ملل، ويتمنى لو يخف ذاك الثقل الذي يحمله ولو قليلًا، أنها ذاهبة إلى مكانٍ ما.. بالطبع بيتها فليس هناك مكان آخر تتوجه إليه.. لم تعد تلك البنت الفتية التي توسع الأرض طرقًا بقدميها مرحًا وسعادة بالحياة، كانت تسير إلى أي مكان فلا يُعارضها.. تحادث أي إنسان فلا يكاد يرفع عينيه عن جمالها، تلبس ما تشاء فتكاد ثيابها تتراقص فرحًا بذاك الجسد الذي ملأها حيوية وشبابًا، أما الآن فليس لها سوى ذلك العكاز تحادثه ويحادثها، تخبره أني ذاهبة لأتقاضى معاشي فيرد عليها متهكمًا: منذ أن عرفتك ولم أرك تسلكين طريقًا إلى غيره!.. ثم يكملان السير معًا في صمت.. لربما خانها شبابها الضائع فأخذ يغازل شيبتها، ويجعلها تنظر إلى صبية وفتيات أخذوا يتضاحكون معًا في مرح فتتنهد نفسها، لا تدري أحسرة على ما فاتها أم سعادة؛ لأن هناك في هذه الدنيا من يوقظ شبابها من سباته ولو للحظة وينام مرة أخرى كما يشاء...

لقد كانت تحب الحياة والحياة تحبها، كانت بسمة على كل وجه وبلسم على كل جرح، أحلامها أخذت تبني سلمًا طويلًا أملة أن تصل إلى السماء، وعندما كادت أن تصل إلى بغيتها انكسر السلم من حيث لا تدري؛ فأخذت قوي إلى الأرض، عندما وقعت على ظهرها لم تكن تبالي سوى بشيء واحد: من فعل بي هذا؟!.. ولماذا أنا بالذات؟! ولماذا الآن وقد كدت أن أصل إلى هناك؟!.. لقد مكثت سنون طويلة ابني ذلك السلم، وأرممه وأحسن صنعه حتى لا يخونني في منتصف الطريق وينكسر، فمن فعل بي هكذا؟!.. أخذت تنظر حولها، تبحث عن أي دليل، لكن اكتشفت أن عينيها لا تساعدها في الرؤية جيدًا، عندما أرادت أن تنهض وثبت بقوة كعادقا، لكن آلام ظهرها أعادها إلى مكانها من جديد.. تحسست الأرض فوجدت شعرات من رأسها، منذ متى وشعر رأسي يفارقني ويفضل الأرض عليّ!.. وعندما قربته من وجهها كي ترى ما حل به، وجدت الراية البيضاء قد رُفعت وقد كانت طوال عمرها سوداء لا تستسلم أبدًا...

عندها فقط فهمت...

فهمت أن ذلك السلم قد أتعبها وأنهكها بنائه للدرجة التي نست معه أن تريح جسدها، حتى إذا بدأت في الصعود أخذت أطرافها تئن فلم تنصت إليها.. أخذ الناس ينادون عليها أن لا

تبتعدي عنا.. إننا نُحبك ونريدك بجانبنا.. أشارت إليهم وهي في منتصف السلم أن تعالوا اصعدوا معي.. أخبروها وهم ينصرفون أنه لن يحتمل سواكِ، وما يكون لنا أن نكسره بثقلنا طالما أنك تريدين الوصول إلى السماء.. لم تُدرك كم أحبوها وتمنوا لها السعادة، ظلت فقط تنظر إلى هناك، قاربت المسافة وقلت درجات السلم حتى كادت أن تصبح ثلاثة أو اثنتين، لكن ضعفت معه قبضة يدها وقدرتها على الاتزان.. زلت قدمها و كُسر السلم فوقعت، وهوى معها كل ما كانت تحلم به وتتمني...

إنها الآن راجعة إليهم .. دون شيء سوى حسرتها وحزن قلبها..

لكن انتظري..

لا تحزني هكذا؛ فقد تبقى لك شيئًا ما..

ليست الحياة بتلك القسوة التي تظنيها..

انظري إلى ذلك السلم الذي طالما تعبت فيه..

هو لك الآن وحدك..

استخدميه عكازًا كما تشائين..

أحببتها أولاً

أخبروها أنها عندما وُلدت توارت الشمس ذلك اليوم خجلًا من ضحكتها..

إنها لا تذكر ذلك بالطبع.. أيُعقل أنها كانت سعيدة هكذا في يومًا من الأيام.. دائمًا ما حكى لها والدها عن تلك اللحظة التي حملها فيها للمرة الأولى، لم يتمالك نفسه من روعة حسنها فأجهش بالبكاء، ربما لا تذكر أيامها الأولى في الحياة لكنها لا تنسى أبدًا تلك اللحظة التي حملها فيها والدها ذات يوم، واحتضنها بشدة وأخذ يقبلها بين عيناها، نعم لا يمكن أن تنسى شيئًا من ذلك حتى نبضات قلبه وهو يحتضنها لا زالت تتردد في أذنيها حتى الآن.

كان أميرها وحبيبها.. كان ملكها وحدها، لا تذكر أنها أخرجت مخالبها لأحد إلا كلما اقتربت أمها منه وحاولت أن تصرف عيناه عنها.. وآه لو جرؤت أن تعكر صفو مزاجه؛ فأن يومًا طويلًا من البكاء وركل الأقدام في انتظارها، هو أيضًا لم ير في الدنيا من هي أجمل منها.. اصطحبها في كل مكان يذهب إليه

وكأنها عروسه الصغيرة، وقد أخذ يباهي بحسنها بين الناس، لا يقبل أن يغطي جسدها الصغير إلا أجمل الأثواب وأغلاها.. دائمًا ما آتى لها بذلك الفستان المنقوش فيه الوردة؛ فهو يعلم كم تحبها.. إنها تذكر ذلك اليوم الذي أتته فيه باكية، تذكر فزع عينيه ولهفته عليها، وعندما أخبرته أن ابن الجيران ضربها؛ لم يكن باهم بقادر أن يتحمل رزعه عليه، وشهدت العمارة يومها حدثًا تاريخيًّا لم يكلموا بعدها هؤلاء (الوحوش) كما يقول عنهم أبيها أبدًا.

متى وكيف انتهى كل شيء؟!.. نعم تذكر تلك اللحظة جيدًا، وتصر أن تتمسك بها في ذاكرتها كما لم تفعل من قبل.. منذ أن انتفخت بطن أمها وهي لا تفهم ما تحويه بداخلها، كانت تظنه كرة فأخذت تدغدغها في سعادة.. ظلت تنتظرها وتبني الأمنيات كم ستلعب بها، وكم ستركض خلفها هي وأبيها حتى ينهكهما التعب، وعندما أتت حفظوها في الحضانة؛ فوجدتها جميلة لكنهم يصرون ألا يختموها (بحلق) بدعوى أنها ولد.. حسنًا لهم ما يريدون؛ لكنه بالتأكيد سيشبهني في كل شيء، وسألعب معه حتى يعلم أنني أحبه أكثر من أي شيء في الدنيا.

رجعت المنزل وهرولت إلى والدها كي يحملها بين يديه كعادته.. لكنها فوجئت به قد أشاحها جانبًا وانتزع كرتها من يديها، وأخذ يقبلها في شوق..ما هذا الذي يفعله!..وقفت وانتظرت عله يكون فرحًا بشيء جديد في العائلة، وسيفيق من سكرته ويحملني كعادته؛ لكن مر الوقت وانتظرت طويلًا، ورأته

يكمل طريقه للداخل حاملًا تلك الكرة الحمقاء بين يديه، وحاملًا معه أول خنجر اخترق قلبها.

مرت الأيام وكرتها تكبر وتزداد جمالًا وانتفاخًا، تتسلل إليها تارة في سعادة وتلعب معها لكن حينما يدخل والدها تختبئ، وتظل تنظر إليهما وهما يتبادلان لحظات أسعد ما تكون لهما، وأشقى ما تكون لها.. ما ذلك الشعور البغيض الذي يجتاحني!.. لِمَ هناك أشياء تخدش بداخلي وتؤلمني هكذا!.. أنا لا أحب ذلك.. أنا أريده أن يعود إليّ.. أنا أريد أبي.. ثم تنفجر باكية بعدما كانت الدموع لا تعرف أي طريق تسلكه لعينيها...

عندما آن أوان ذلك الذي لا مفر منه لأي طفل استطاع المشي، والكلام تحمست كثيرًا.. ربما تجد في الصحبة ما يهون عليها وينسيها شقائها في المنزل، وربما سنحت لها الفرصة أن تختلي بأخيها وتحبه بعيدًا عن والدها، وعن تلك المشاعر الرهيبة التي تتملكها كلما رأتهما معًا؛ لكنها فوجئت بهم ينتزعونه منها إلى مدرسة أخرى يتعلمون فيها أكثر من لغة.. هي لا تريد ذلك ولا يهمها، هي فقط تريد أن تكون معه ويكون معها؛ لكنهم أقنعوها بكلمات: (هو ولد لازم يتعلم كويس عشان هيبقى راجل ويشتغل ويصرف على بيت)... فكانت ترى أخيها يتدارس لوغاريتمات لا تفقه منها حرفًا، وتظل تنظر إليه مبهورة وهو يتكلم، وتراه بطلًا عرف ما لم تعرفه، وفهم ما عجزت عن فهمه؛ فتزداد إعجابًا به وتتوارى أكثر داخل نفسها...

كبرا معًا.. وصارا الفتى القوي والفتاة الباهرة الحسن، عندما بلغت عامها السبع عشر كانت تتمنى لو آتى إليها والدها ولو بحلوى؛ فقد توقف عن ذلك منذ أمدٍ بعيد، كان يمر يوم ميلادها ساكنًا ربما تتخلله كلمات حلوة من صديقاقما وأمها.. كلمات اعتادت أن تسمعها لكنها لا تعني لها شيئًا فهي لم تأتِ منه هو!.. لكنه اليوم أتى إليها على غير العادة، دخل عليها غرفتها وقبلها بين عينيها فانفجرت منها الدموع، آااااه يا أبي!.. كم اشتقت كثيرًا إليك!.. أخيرًا تذكرت يوم ميلادي.. أخيرًا عدت إليّ...

نظر إليها في حنان وأخبرها (عندي لك مفاجأة)... إن الليل وقتها أنهكه السهر والسهاد معها من كثرة ما تقلبت في الفراش تفكر فيما يحمله أميرها إليها، بالتأكيد ليس الفستان ذي الوردة فأبي يراني كبيرة الآن.. أتراه سيأتني بمثل السيارة التي أهداها لأخي!.. لكني لا أريد.. لا أعرف كيف أقود سيارة، ولا كيف أدير مفتاحها أصلًا.. لا يمكن أن أقودها كأخي فلم أكن يومًا ما بمثل براعته وذكائه.. امممم تعبت كثيرًا من التفكير، لا أدري لكني أثق أن غدًا سيكون أفضل من عمر طويل فات...

آتى الغد، لبست أزهى ما تملك، دق باب البيت معلنًا وصوله فلما تيقنت أنها لن تتمالك لهفتها اختبأت تنظر إليه من وراء باب غرفتها.. لم يدخل وحده، لقد دخل وراءه رجل آخر يحمل ورودًا.. ما الذي يفعله هذا الرجل هنا!.. أنا أنتظر أبي

فقط فما الذي آتى الآن بذلك السخيف!.. حسنًا سأنتظر بعض الوقت في غرفتي حتى يمل ويمضي إلى حال سبيله...

لكن الرجل لا يمضي... أبوها يناديها، ذهبت إليه في خجل ممنية نفسها أن يرى الرجل ذلك منها فيخجل هو الآخر ويرحل، لكنه ظل ينظر إليها بكل فجاجة ويتأمل كل سكنة فيها.. نظرت إلى أبيها وعيناها تتضرع: أبي.. ما هذا الرجل!.. لِمَ ينظر إليّ هكذا!.. إن نظراته تضايقني وتخترق جسدي كألف خنجر.. لِمَ لا توزعه ضربًا كابن الجيران من قبل!.. إنه يؤلمني الآن أكثر منه!.. أبي أرجوك لا تشح بنظرك الآن.. لِمَ لا تحميني منه!.. لِمَ تهرب مني!

نظر أبيها إلى عينيها وفهم كل كلمة أخبرته بها.. إنها لا تدري كم يحبها ويفهمها أكثر مما تفهم نفسها.. لم يستطع أن يرد عليها فأبعد نظره وابتسم في وجه الرجل، يا بنيتي إني أعشق التراب الذي تمشين عليه، ولا أطيق ذلك البيت لو اختفى رحيقك منه يومًا، لكن اليوم يفرق بيننا ما هو أقوى مني ومنك، اختلس النظر إليها، وجد تلك الدموع التي طالما مزقت داخله تترقرق من عينيها.

أرجوك كفاكِ تعذيبًا لي.. لا يمكن أن أقوم إليه، وأوزعه ضربًا لأنه أسال قطرة من دمعك.. هو يملك الآن المال الذي أحتاج إليه والذي سينهدم ذلك البيت من غيره، عهدتك يا بنيتي

تفهمين وتتحملين مسؤوليات عجزت أكتاف أقوى الرجال عنها فلا تأتِ الآن وتضعفين.. أرجوكِ ارفعي نظرك واقرئي عيني.

لِمَ تصرين أن تطرقي برأسك إلى الأرض هكذا..

لِمَ لا تنظرين إلي!

وكانت تلك الليلة آخر كلمات تبادلتها العيون..

عيون الأمير وحبيبته...

سألهم كيف كنت؟

أخبروه:

عندما كنت صغيرًا.. كنت شقيًّا

عندما كنت مراهقًا.. كنت متمردًا

وعندما كبرت.. أصبحت تعيش في الأوهام

هم لا يفهمون.. أنه لا يريد شيئًا خاصًا بهم

لا يريد أن يسلبهم حقوقهم...

كل ما هنالك أنه أراد ما هو حقًا له...

أراده أكثر من أي شيء آخر

أراد حريته



كان يومًا من تلك الأيام التي تبتسم فيها الدنيا وترتدي أجمل حليها، اصطحبت أبي كعادته أيام الجمعة إلى المكتبة.. دائمًا ما عشقها، وكانت ملاذه كلما شعر بضيقٍ أو ملل، كان يصطحبني معه كلما ذهب إلى هناك، ويتركني في دور الأطفال ثم ينزل قسم الكبار حيث تنتهي خطاي عند بابه؛ فلا أجد سبيلًا للتسلل هناك... لم أكن في بداية طفولتي ألقي بالًا لتلك الأرفف التي تحاصرني من كل جانب، وكنت أفضل أن أتعرف على طفلة أو اثنتين لنقضي سائر اليوم ركضًا وراء بعضنا، لكن في خضم ذلك وكلما شعرت بالتعب، أو مللت اللعب جلست وأخذت أنظر حولي أتلمس ذلك الكتاب أو ذاك حتى أحببت ملمس تلك الأشياء.. شيئًا فشيء بدأت أفتح مكنونها، وأستكشف ما بها حتى عشقت ذلك العالم بكل السحر الذي يحويه.. وربما مر اليوم مملًا ثقيلًا لكن سرعان ما تغمرني السعادة عندما أعود في نهايته محتضنة أعز صديق لي وأمني نفسي بليلة نأنس فيها معًا...

مر الزمان وتغيرت ملامحنا وعادتنا كثيرًا، لكن ظللنا على تلك العادة لا نكاد نغيرها إلا اضطرارًا... حتى كان ذلك اليوم، بعدما جلس والدي في مكانه المعتاد ذهبت وأنهيت جولة خاطفة في المكتبة التقط ذلك الكتاب أو ذاك فلم يعد الصبر وانتقاء الكتب في روية مما تبقى لي على أية حال.. استغرقت نصف الساعة ورجعت لوالدي أخبره بانتهاء جولتي؛ فنظر لي في صدمة: لكني لم أفتح كتابًا بعد!.. فكرت قليلًا وأخبرته: حسنًا... سأنتظرك في الحديقة ريثما تنتهي...

نزلت هناك، كان الجو باردًا لكنه محبب إلى النفس ورائحة الخضرة تغازلك في كل مكان... جلست ووضعت ما استعرته بجانبي فلم تكن نفسي في ذلك اليوم براغبة أن تقرأ حرفًا واحدًا.. نظرت إلى السماء، أفواج من الطيور تحلق فوق رأسي وتستقر هناك على تلك الشجرة... الشمس وقد انفرج ثغرها عن ابتسامة هي أجمل ما رأيت منذ زمن.. الأشجار تتمايل مع الرياح ويتراقصان معًا في سعادة.. رفعت رأسي وتأملت كثيرًا، وفي غمرة هذا أغمضت عيني ولم أشعر سوى بدموعي تنهمر على وجهي...

حتى تلك اللحظة لا أدري لِمَ بكيت!.. أدموع نشوة بتلك اللوحة الباهرة في الحسن فلمست وترًا ما بداخلي ربت على عيني فأبكاها.. أم هو شوق لتلك الحرية التي يحلق بها الطير فلا يحده سماء ولا أرض ولا يقيد جناحيه شيء؟! كم شعرت في تلك

اللحظة بالعجز والضعف، كم تمنيت لو كسرت ذلك الذي يكبل عنقي وألقيته بعيدًا، لا أتحدث عن كبت الناس والمجتمع؛ فتلك أمور ضعيفة واهية أمام إرادة عازمة واثقة، لكنها الأسوار والجدران التي أخذت أبنيها حولي قلبي حتى كبلته، شعرت وكأن أميالًا تفصلني عما تمنيته في حياتي.. شعرت بأحلامي تطير بعيدًا مع تلك الطيور وتبتعد عني وكأنها قد ملت تخاذلي وتقصيري في حقها، وددت لو رجوتها أن تنتظرني، تمهلني الوقت كي ألملم شتات نفسي وأحلق ورائها، لا أدري إن كانت تسمعني أم لا؛ لكنها كما عهدتها دائمًا تسامحني كلما قصرت بحقها وتبقى بجانبي ممنية نفسها أن أفيق يومًا ما.. ظللت على تلك الحال لبرهة من الوقت حتى أفزعني صوت صراخ أطفال بجانبي فاستيقظت.

كانوا خمسة أو ستة أطفال يلهون ويركضون وراء بعضهم دون تعب.. كانوا في غاية السعادة وأعجبتني طفلة منهم تكاد تسابق الريح من سرعتها وتوقد حركتها، جلست أتأملهم ثم نظرت إلى آبائهم الذين يراقبونهم في صمت، كم يا ترى واحد منهم يتمنى لو ألقى بقناع الرزانة والوقار وأخذ يلهو مع ابنه ويركض خلفه حتى يقعا معا في سعادة ... كم من رجل يحمل مظهر الناضج المتزن بينما يتململ في أعماقه طفل صغير يود لو يلهو ويلعب ويصرخ فرحًا بالحياة! كم أن الحياة تُلبسنا أقنعة تخنقنا كلما نهضنا من نومنا!.. ما الذي سيحدث لو قررت أن أتخلى عن أحدهم يومًا ما!.. ماذا لو قررت أن أخفيه تحت

الفراش، وأتظاهر أنني لا أجده وأنزل إلى الشارع بدونه، ما الذي سيحدث عندئذ!

عندما وجدت أن إجابة السؤال تكمن في الفعل، ورؤية النتيجة ألقيت ذلك القناع جانبًا وتوجهت إلى طفلين صغيرين انهمكا في البحث عن شيء ما لا أدري ما كنهه.. سألتهم عما يفعلون فوجدتهم قد أثار قلقهم ذلك الكوخ الذي سيتهدم لو زادت الرياح قليلًا وانخرطنا في حوار طويل انتهى بأن الكوخ متين لا يمكن أن يقع، ولو قرر أن يفعل فأننا نملك سيقان جيدة تنقذنا وقتما نشاء.. وعندما اطمأنت نفوسهم قليلًا أشاروا لتلك الكرة المحشورة هناك وراء الكوخ، ولا يستطيعان لها وصولًا.. فما كان مني سوى أن تسلقت الكوخ، وانحشرت بداخله حتى أخرجت لهم ذاك الكنز الثمين الذي أرهقهم البحث عنه والذي لم يكن سوى (كانز) صغيرة أرادا أن يكملا بها لهوهما.. أخذت أسير بين تلك الممرات التي طالما أثارت فضولي وشغفي في صغري، وجعلت قلبي يخفق من اللهفة أي سر عميق يكمن هناك.. حاولت أن أغمض عيني وأستدعي ذات الفضول والشغف.

لكن هيهات ما بين عقل صغير رسم قصصًا، وحكايات عن المجهول المثير الذي يقبع بداخل تلك الممرات، وما بين عقل قد نضج وأدرك أنه ما من شيء هناك سوى الفراغ...

رجعت إلى مكاني أتابع لهوهم مرة أخرى حتى بدأ الآباء يدعون أولادهم إلى الرحيل... نظرت إلى الشمس فوجدت ابتسامتها تخفت شيئًا فشيء، والجو بعدما كان يداعبني في رفق أخذ يلكزني بقرصة برد واحدة تلو الأخرى... فتركتهم وتوجهت لوالدي كي نبدأ معًا رحلة العودة.

ربما كان يومًا عاديًّا للغاية نرى مثله كل يوم...

لكن عندما ركنت العجلة قليلًا على جانب الطريق...

أدركت أن الحياة...

لا يزال بها الكثير كي أكمل الطريق من أجله...

ربما كنت مجرد كلمة..

لكن كل حرف مني يروي..



حكاية أمة

ان جالسًا مع صديق له يحاول أن يفهمه تلك المادة شديدة العناد على عقله.. إنها لا تريد أن تدخل بهدوء وتستقر كما تفعل أي مادة تحترم نفسها.. لابد لها من طقوس تدخل بها؛ أولًا الخدم والحشم، ثانيًا الوزراء والسفراء، ثالثًا رئيس الجمهورية، رابعًا (نكتفي بهذا القدر حفاظًا على المرارة والكبد).. كل هذا كناية عن دخول سيادتها واحدة واحدة، واستمر الحال هكذا إلى أن انحشرت كلمة دخيلة.. ففي وسط ما كان هذا الصديق يشرح، خرجت من فمه كلمة (نأكسسها) (**access**) فطارت كالقنبلة إلى أذن الآخر حتى استقرت عند حافة أذنه...

عند حافة الأذن: دخلت الكلمة في حالة انتفاش غير عادي بنفسها إلى أن استوقفها الحرس ونظروا إليها بريبة.. من أين أتيت!.. إن لها سحنة عربية ولكنها ترتدي ملابس كاوبوي أمريكية!.. فتشوها جيدًا.. لم يوجدوا بها ما يريب فتركوها تعبر سالمة.. دخلت وظلت تمشي في دهاليز ذلك المسمى بالعقل.. ما

هذا الفراغ!.. إنها لا تجد سوى كرة تجري تحت قدميها، ومشاجرة هنا وهناك، ورائحة دخان سجائر تملأ المكان.. يبدو أن حياة هذا الشخص حافلة.. حسنًا وما لها هي!.. كل ما تبحث عنه هو قسم التراجم حيث يفكونها ويرسلوها إلى المخ مباشرة، وترتاح من هذا كله.. فهي في النهاية مجرد كلمة... وجدت غرفتين فقط؛ الأولى: مكتوب عليها (العربية)، والثانية: (الإنجليزية).. اممم... يبدو أن ثقافته مضمحلة للغاية... آثرت أن تدخل إلى الإنجليزية أولًا فقد شعرت أنها الأقرب إليها... ما أن دخلت حتى قالوا لها: (هييييه!.. إلى أين أنتِ ذاهبة!..إنك لا تشبيهنا على الإطلاق!)...(كيف ذلك؟ ألا ترون ملابس الكاوبوي التي أرتديها!)..(وهل كل من ارتدى الكاوبوي أمريكي!.. إن كيانك لا يمت إلينا بصلة.. إنك حتى لا تحتوى على حروف a b التي هي أصل لغتنا)... (حسنًا! لا ترفعوا أصواتكم هكذا.. سأذهب إلى حيث يرحبون بي جيدًا).

انطلقت إلى غرفة (العربية).. فتحتها؛ فوجئت بفريق ضخم للغاية يكاد من كثرته أن يحطم باب الحجرة.. رغم أنها ليست بنفس الرعاية التي تأخذها غرفة الأخرى؛ إلا أنها شعرت برائحة أصالة في المكان لم تجده هناك.. سألت لِمَ كل هذا العدد الضخم!.. أجابها أحدهم: (إن ما نترجمه غني للغاية.. ويوجد له أصول وأجداد كثيرون.. والمعاني أكثر من أن تُعد؛ لذا فهم يبذلون أقصى الجهد لفكها، وفي ذات الوقت إبقائها على جمالها

وأصالتها الذي أتت به).. قالت: (حسنًا.. المهم أن تفككوني فقد مللت كثرة المشي والسعي دون هدف)...

جلست.. فحصها أحداهم، ثم ما لبث أن رفع حاجبيه متعجبًا ونادى آخر.. ونادى الآخر ثالث فرابع حتى اجتمع في النهاية ما لا يقل عن ٣٠ فرد يحاول كل منهم أن يَفحصها ويفككها.. قال أحدهم: ربما نستطيع أن نرجعها إلى (أسس) إنه أقرب جد فيها من صفاته، قال آخر: لا أظن.. لم أسمع أن حرف (الكاف) تزاوج من تلك العائلة من قبل!.. قال آخر: ربما هي من عائلة (أكس) وليس (أسس)...

يا سلام! وما تلك العائلة يا فصيح!...

وهكذا طال الجدل، وفي النهاية أخبروها أنها كيان كلمة، ولكن بلا أي جذور ولا جدود.. وأنها للأسف ليس لها سبيل للفك! وأن مكانها الحقيقي هو غياهب النسيان...

هي والشعوب التي ارتضت على نفسها أن تقتل هويتها وكيانها...

هو زائر كل الليالي؛ لم يترك بيتًا إلا دخله.. ها
هو الآن يقف على الباب...

فلنتسلل بهدووووء

زائر منتصف الليل

دقت ساعة منتصف الليل...

إنه الشتاء؛ حيث تقبع الكائنات في أوكارها في دفءٍ وهدوء، بينما يأبى بنو آدم سوى أن يعكروا صفوها بصخبهم وضجيجهم...

لكن يبدو أنها الليلة ستشذ عن القاعدة، وتذهب إلى فراشها؛ فقد أجهدها عمل اليوم وما لاقيته من مختلف أنواع البشر.. فقد كانت بحكم منصبها مجبرة أن تتعامل مع الأحمق، والسخيف والمتحذلق والدونجوان بابتسامة هادئة، وكلمات مهذبة رُغم ما تختلج به نفسها من ضيق وغضب، ودت لو كانت أكثر حزمًا وأشد سخافة، ولكن نظرة واحدة من مديرها كفيلة بأن تنحت تلك الابتسامة مكانها مرة أخرى، حسنًا فلتحتفظ برأيها لنفسها لو أرادت أن تُبقي على رزقها، وكسب عيشها ولتترك متعة الاعتراض والرد بلسانين لمن هم أبناء أعالي القوم وأسيادهم.

هاااااوم.. إن الليل بارد والفراش دافئ يناديها أن تعالي أحميك منه، تدثرت جيدًا وأخذت تنظر إلى السقف، إنها تعلم ما

هي إلا لحظة أو اثنتين ويداهمها النوم، ويربت على جفونها في هدوء وسلام... تك.. تك.. تك.. ما لتلك الساعة السخيفة تتحدث بصوتٍ عالٍ!.. ألا تدري أن هناك من يبغى النوم هنا!.. مضت اللحظة، أصبحت اثنتين.. ثلاث.. عشر.. اممم حسنًا، يبدو أنه سيتأخر قليلًا اليوم.. فلأسلي وقتي حتى يأتي.. إنهم دائمًا ما يتحدثون عن تلك اللعبة التي قلما فشلت في إسالة لعاب النوم.. عد الخراف؛ هذا خروف.. اثنان.. ثلاث.. أوووووف اصطدموا ببعضهم.. فلنعد الكرة مرة أخرى.. شيئًا فشيء أدركت ذلك الخاطر الذي طالما خافت أن يكون هو.. إن النوم لن يأتي الليلة أبدًا.. والأدهى أنها تخاف ألا يأتي غدًا ولا بعده إلى ما شاء الله!.. آاااااه هذا ما ينقصني!.. إنها تعرف ذلك الشعور جيدًا فطالما جاءت عليها ليالٍ طفقت تبحث عن ذلك المجرم الآثم الذي ركل النوم من عينيها.. بحثت في دخيلة نفسها ودهاليز عقلها لكن يبدو أن ذلك المجرم بارع في الاختباء.. شحذت كل قواها، وذكائها بل ودموعها حتى تجد ذلك الذي أرق منامها، وأطال سهادها؛ لكنه أذكى مما تخيلت.. وبعد أن استخدمت كل أسلحتها واستنفدت ذخيرتها، لم يبق سوى صديق عمرها وأنيس وحدتها تستعين به لينقذها من براثن ذلك السفاح.

نعم إنها تذكر ذلك العزيز.. ذلك الذي دائمًا ما تفارقه وعندما تعود إليه تجده فاتحًا ذراعيه أن مرحبًا بك في أي مكان وأي زمن.. عهد فيها الجفاء والبعد أيام وليالٍ لكنها ما رأت منه

سوى الوفاء والحنين، إنها تعلم أن حل مسألتها وراحة بالها عنده فلا داعي لإضاعة تلك الساعات القليلة حتى الفجر في اختراع أسلحة لا طائل منها؛ ذهبت إليه.. على عهده دائمًا مبتسمًا حزينًا.. يقف وحده لا يؤثر فيه تعاقب السنين والأزمان، نظر إلى عينيها: ما بك!.. أهو زائر منتصف الليل كعادته قد أرهقك وعذبك؟.. أخذ بيديها، كم هي مضطربة ترتعش في صمت!.. لا ترتجفي هكذا يا صديقتي فأنا الآن بين يديك وطوع أمرك!.. ها أنا أنسل داخل غياهب نفسك.. أمسك بذلك النبراس الذي طالما أنار ظلام العقول وكشف خبايا النفوس... اهههه.. ها أنت أيها اللئيم قد وجدتك.. تعال هنا.. مالك ومال صديقتي!.. لما تؤرق منامها وتقض مضجعها!.. أخبرني ماذا دهاك!.. امممم.. حسنًا فهمتك، أدرك كم تعاني مثلها، وأن كل ما تحتاجان هو من يصلح بينكما.. تعال.. لا تخف سيدتك لن تمسك بسوء مادمت معي فهي تثق بي أكثر من نفسها، لا تقلق سأجعلها تفهم حقيقة أمرك وسأروي لها ما استغلق عليها منك.. فقط تشبث بيدي ولا تفارقني

وما هي إلا ثوانٍ وانسكب ذلك الصديق ممسكًا بيد من كانت تظنه مجرمًا، وأخذا يجريان في انسياب على صفحات الورق. .نعم ما كان ذلك المجرم سوى مجرد كلمات.. كلمات تكدست، وتداخلت داخل عقلها؛ فإذا بها تسد شرايينه وتعيق تدفق أفكاره.. كلمات لم يكن لأحد من الناس أن يفك شفراتها فطالما عهدت في نفسها الكتمان والصمت...

لكنه كان دائمًا موجودًا هناك...

يفهمها.. يدرك ما تختلج به نفسها..

عندما تحتاجه؛ يُلبي نداءها..

عندما تحتشد دموعها، وتُصر على الانهمار؛ هو فقط من يربت عليها ويعيدها إلى منابعها..

لقد كـــــــان..

قـــــــلمها...

عروسة السكر

إستيقظت تلك الليلة؛ وكأن أحدهم قد أمسك رأسي، وأخذ يرجها رجًا حتى تبعثر كل ما تحتويه.. أفكار تتطاير هنا وهناك دون أن تدري لها وجهة، صوت أختي وهي تمهمهم بشيء لا أفهمه يتداخل مع ذلك الدواء الذي تجرعته، ولم أستسغ له طعمًا.. وبينما هما يتحاوران في محاولة لإيجاد أي منطق بينهما إذا بالقطة التي تمكث أمام المترل، وقد أخذت تموء دون كلل وتخبر الشارع بأكمله عن قصة حياتها، والتشرد الذي عاشته حتى انتهى بها المطاف أمام عتبة بيتنا.. وفي خضم ذلك المشهد الهلامي كله يتأرجح رأسي يمينًا وشمالًا محاولًا في يأس استيعاب ما يحدث حتى يتوازن وتهدأ أمواجه الثائرة.. يقولون أن العشاء المتأخر يصنع بالمرء الأفعاعيل، ويحول ليله الساكن إلى فيلم أكشن بطله هذا النائم البائس ومكان التصوير حجرات عقله التي فزعت من تلك الكائنات المتواثبة عليها من اللامكان...

حسنًا لكني لم أكن قد تناولت شيئًا منذ أن أعلنت الساعة منتصف اليوم.. فما الذي حدث إذن!.. أتراه أمر ما أثار روعي

في ذلك اليوم، وعندما نسيته عاد ليزورني في أحلامي، ويخبرني أنني لن أتركك هنئين يقظة أو نائمة، لكنه كان يومًا هادئًا لم يملأ فراغاته الكثير من الأمور.. مجرد رحلة لذلك المكان وانتهاء من تلك الصحون، ورواية مملة قد أبت على نفسها ألا تنتهي أبدًا ورُغم ذلك تصر عيناي أن تتابع سطورها في إصرار عجيب!.. فما الأمر إذن؟!

لم أكن في ذلك الوقت قد استوعبت ما حدث حتى أجلس في هدوء، وأفكر في أسبابه وكيفيته.. كل ما هنالك أن تلك الأفكار قد تزايدت، وتشابكت بشكل مخيف ينذر بأنه لو مكثت في الفراش لثانية أخرى فالوداع لما تبقى من ذرات عقل أفكر بها؛ فما كان مني سوى أن انتفضت فجأة في وجلٍ.. جلست هنيهة أهدئ من روعي.. حسنًا، السكون يخيم على المكان، ولا وجود لذلك الشبح خلف الباب.. تركت فراشي، وتوجهت خارجة فوجدت أختي أمامي.. سألتها إن كان ما عنته في همهمتها هو كذا وكذا؛ فما كان منها سوى أن نظرت لي في ذهولٍ أن متى سمعتِ ما أقول! وقد تركتك جسدًا هامدًا منذ ساعات.. لم يكن ذهني بقادر أن يناقش أي فكرة فتركتها دون جواب، توجهت إلى علبة الدواء التي طالما تمثلت لي، أخذت أنظر لمكوناتها وأقرأها المرة تلو الأخرى، ربما كان فيها سم قاتل أراد عقلي الباطن أن يحذرني منه.. لكني وجدتها مستكينة في دعة، وقد أخذت تنظر لي

في براءة، وعتاب أن كيف شككت بها يومًا ما وهي التي تحملتني طيلة فترة آلمي وصمتت بجانبي في جلد.. تركتها في رفق وكأنني أكفر بذلك عما ظننته بها، وتوجهت إلى ذلك الحل الأخير الذي قلما فشل معي في يوم من الأيام...

ذهبت إليها.. كانت جالسة كعادتها في ذلك الوقت تتابع قنوات التلفزيون لا تكاد تستقر على أحداها.. من العاشرة مساء إلى الحقيقة مرورًا بناس بوك وإلى آخره من تلك البرامج التي ما انفكت تخبرنا عن بشاعة حاضرنا وظلمة مستقبلنا.. فما كان مني سوى أن أمسكت بجهاز التحكم، وحولت شاشة التلفزيون إلى ظلام قاتم عاكسًا صورتنا وهي تحتضنني في دفءٍ وحنان.. كم هي رائعة تلك النعمة التي رزقنا الله إياها وجعل الجنة تحت أقدامها!.. وجعل طاعتها وبرها شرطًا أساسيًّا لرضاه عنَّا.. إنها لا تحتاج أن تسأل عمَّا ألمَّ بك؛ فيكفي أن ترتمي في أحضانها، وتدفن نفسك بداخلها حتى تقرأ كل ما يجول بداخلك؛ بل وترد عليك في رسائل هي أجمل ما تكون أملًا وحياة.. تنسى حينها الزمان والمكان، وتجد كل أثقال الدنيا وقد سكنت بين يديها حتى غدت ذرات لا تكاد تزن شيئًا.. ظللنا هكذا لبرهة من الوقت حتى شعرت أن كل الكلمات قد تبادلناها في صمتٍ.. استلقيت بجانبها وعادت الشاشة السوداء من جديد كي تَظهر وجوه أقوام كثيرون لا أعرفهم، ولا يعنيني أن أسمع ما يحللونه ويناقشوه...

فيكفي أنها هُنالك بجانبي...

كي تخبرني أن العالم لا يزال آمنًا لأحيا به...

الأحلام مش عايزة فوارس

يحكى أنه في غابر الأزمان.. استيقظ قومًا من الناس من سباهم فوجدوا أنفسهم محاطين بسياج عالية قوية للغاية.. ذُعروا ذعرًا شديدًا، أخذوا يصرخون بأعلى صوتهم طالبين النجدة، لكن يبدو أنه لم يكن هناك غيرهم في المكان، ظلوا هكذا حتى أتى منتصف النهار.. بطونهم تتألم من الجوع، حناجرهم تقطعت من العطش، وبينما هم كذلك؛ إذ صرخ أحدهم: هناك.. انظروا هناك...

جرى القوم ينظرون إلى حيث يُشير.. رأوا من مكان بعيد.. بعيد للغاية.. سراب أشبه بإنسان؛ بل هو إنسان يمتطى جوادًا.. صرخوا قائلين: أبو الفوارس، إنه أبو الفوارس جاء لينقذنا.. نعم هو بعينه.. الذي ظلوا يحكون لنا عنه في الأساطير ها هو أمامنا.

أخذوا يتجادلون؛ أتراه جيدًا؟ ليس للغاية.. لكن يبدو لي أنه طويل عريض المنكبين.. لا لا أنني أراه قصير، ولكن مهيب الطلعة، وآخر يصف عيناه بالبحيرة الصافية، وشعره بالليل الأسود، ورابع يرى بريق سيفه يكاد يخطف الأبصار من تلك

المسافة، وخامس وسادس ووو... لم يتفق اثنان على هيئته..كل واحد يصفه من خياله، وما حكوه له في الأساطير عن شكل أبو الفوارس.. لكنهم أجمعوا أنه يقترب منهم شيئًا فشيئًا وأنه لن يلبث إلا قليلًا حتى يجدهم ويخلصهم.

ناموا واستيقظوا.. أسرعوا ناحية السياج، أحدوا النظر.. أنه لازال هناك، يقف حيث كان.. بعيدًا.. بعيدًا للغاية.. فكر أحدهم؛ لِمَ لا نساعده!.. تلك المدافع القديمة التي نملكها، لما لا نتركها خلف السياج حتى إذا اقترب استطاع أن يجدها ويخلصنا، فكرة رائعة! وتلك الفؤوس التي نملكها.. بالتأكيد ستساعده في مهمته كثيرًا، نعم.. ونِعم الرأي... ولم تلبث أن غربت الشمس وكم هائل من المدافع والفؤوس متجمعة أمام السياج.

نام القوم فرحين.. كل واحد منهم يحلم باللحظة التي سيأتي فيها أبو الفوارس ويطلقهم أحرارًا،استيقظوا نهارًا، ونظروا.. لا يزال أبو الفوارس هناك لم يقترب ولو سم واحد.. بدأ القوم يتذمرون.. يحبطون.. ييأسون... لِمَ لا يأتي!... لِمَ لا يقترب!.. بدأوا يتساقطون الواحد تلو الآخر... ظلوا يصرخون: تعال يا أبا الفوارس؛ لكنه لا يزال هناك.. وطالت الأيام...

أتى صباح يوم جديد.. صوت جواد بجوار السياج.. يحمل فارسًا طويلًا ضخم الجسد، نظر وراء السياج، رأى قومًا صرعى ليس فيهم أحد على قيد الحياة، حسنًا هو ذاك ما كان يريد.. لقد بنى تلك السياج، وكان يعلم جيدًا أن هؤلاء القوم..

سينتظرونه..

سيعطونه كل شيء..

من أجل أن يحررهم..

سيظلوا ينادونه كي يأتي..

ولكنهم لن يحاولوا أن يحركوا السياج ولو قيد أنملة..

أزال السياج بفأس صغيرة له..

ثم دخل وأخذ كل شيء..

ومضى في سبيله...

الرحلة

ذات يوم من الأيام أحببت أن أسافر، أن أشاهد العالم وألف الدنيا، قالوا لي أن هناك محطة قطارات بالقرب من هنا شهيرة للغاية.. كل من ركب منها اتفق أنه لم يعد كما كان من هول ما رأى من العجائب.. ركبني الفضول؛ أي عجب يا تُرى يقبع هناك!.. ما ذلك الشيء الغريب الذي سأراه في تلك المحطة؟!

لم أتوقف للتساؤل كثيرًا.. فلنقرن القول بالفعل.. جمعت أغراضي، وتوجهت حيث كانت المحطة، لم أجد هناك سوى قطاران لكن ما أعجبهما، كانا على خطان ممتدان إلى ما لا نهاية، ورغم أن هذين القطارين متطابقان في الزمان والمكان؛ بل وفي تاريخ الصنع إلا أن أحدهما مهترئ قديم عفا عليه الزمن، أما الآخر ففي غاية الأناقة والجمال والحداثة.. بالطبع بهرني القطار الحديث، وكدت أتوجه إليه... ولكن بما أنني أبحث عن الغرابة ورؤية كل ما هو مثير؛ فقد أحسست أني سأجد ما أبحث عنه في هذا القطار القديم، وبالفعل اتخذت قراري وركبت.. حسنًا إنه لا بأس به من الداخل، وتشعر فيه بالراحة والاطمئنان... انتظرت قليلًا إلى أن انطلقت الصفارة مُعلنة بداية الرحلة، في البداية

راودني شعور غريب لم أتبين كنهه.. شعور يخبرني أن هناك شيئًا غير طبيعي مما زاد إثارتي؛بل أنه زادت نشوتي عندما أحسست أننا نسير بسرعة أكبر من القطار الآخر؛فقد شاهدت عبر الزجاج مجموعة أطفال يلوحون لي ونحن نعبره..إنهم كانوا يضحكون بشدة.. يا ترى لماذا!

لم أهتم كثيرًا، نظرت حولي لعلني أجد من يسامرني طوال الرحلة.. وجدت أناسًا ودودين للغاية.. بدأت الحديث مع من بجانبي: اخبرني هل تعرف إلى أين يتجه القطار؟.. قال: كل من هنا لا يعلم وجهتنا.. إننا نركبه فقط كي لا نظل ساكنين.. قلت له: عجبًا! ألم تركبه قبل ذلك!.. رد قائلًا: بل ركبته مرات عديدة.

حسنًا وأين أوصلك!.. نظر إلي بتهكم: إنه لا يقف إلا عند النقطة التي بدأ منها..قلت مستمتعًا: بالتأكيد يلف بكم العالم بأسره قبل أن يصل إليها!.. رد باستخفاف: حسنًا، إننا لا نهتم كثيرًا؛ بل أصدقك القول إننا لا نحاول حتى أن ننظر خارج نوافذه.. انظر حولك جيدًا.. اسمع لما يقوله الناس.. أترى تلك السيدة هناك، إنها لم تزل تخبرنا عن شخصا يدعى (ر ع)، وتدعي أنه كان أحد أجدادها.. تقول أنه كان ملكًا ذا سلطان عظيم غزا العالم.. انظر إليها جيدًا.. ألا ترى أنها أصبحت أشبه بالبالونة الموشكة على الانفجار من كم الغرور!.. والغريب أنه رغم كل ما تدعيه لا تكاد تجد ما تدفع به ثمن إفطارها!.. أترى

ذلك الشخص الجالس جوارها؟.. لقد ظل يؤكد لنا أنه من نسل ذات الجد، ولكن يتميز عنها بأن إحدى جدوده كان طبيبًا ومهندسًا ومخترعًا.. أما عن ذلك الشخص الجالس بمفرده؛ لقد كان رفيق رحلتي يومًا ما على هذا القطار.. ظل يحكي لي عن أجداده العظام الذين هزموا جحافل جيوش الاحتلال وكانوا نورًا للبشرية... لقد بهرني بحديثه في البداية؛ لكن حينما هاجمنا بضعة رعاع ونحن في طريق رحلتنا وجدته يختبئ تحت أقرب مقعد!.. عندها لم أطق أن أسمع منه حرفًا واحدًا، وأخبرته أن يذهب لذلك المقعد هناك يحكي له عن أجداده؛ فهو الوحيد الذي عنده استعداد أن يستمع إليه.. كل من حولك من ذات الصنف.. لا تكاد تجدهم يخلو كلامهم من كلمة جدي، أبي، أسلافي، تاريخي.. ويكادون ينفجرون من الغرور الذي أعماهم أن ينظروا خلف نوافذهم ويروا أنهم في خلال رحلتهم مع أجدادهم نسوا العالم من حولهم، ونسوا القطار الذي يمر بجوارهم...

قاطعته قائلًا: لحظة واحدة! إنك يا سيدي مخطئ ها هنا، لقد شاهدت بعيني أننا نعبر القطار الآخر.. نظر إليّ بسخرية قائلًا: كم أنت ساذج!.. أتظن أننا نحن من عبرناه!.. ما كان ذلك إلا لمشاهدتك لهم ونحن نرجع للخلف، وما كان أطفالهم وهم يضحكون إلا سعادتهم أنهم سبقونا كثيرًا...

وكيف أنهم يشاهدون قطارًا..

يمشي عكس الكون..

أخذت أصفق يدًا بيد.. أيُعقل أن تكون رحلة أحلامي في مثل هذا القطار!.. لكن لحظة!.. أخبرني أيها الرجل طالما أنت ناقم هكذا لماذا لم تغادر هذا القطار عند أول محطة وتشق طريقك في القطار الآخر!.. تنهد طويلًا ثم قال: يا بني.. إنني كنت مثلك تمامًا؛ شاب في مثل عمرك.. أحمل أحلامًا وردية وحماسًا لا حدود له، كنت أريد أن ألف العالم، أن أحلق في السماء، يومًا ما أغضبني حالهم وقررت النزول؛ لكن شيئًا فشيء اعتدت عليه، وآلفته ثم بعد ذلك سلمت به.. لدرجة أني اقتنعت كما أنت مقتنع أننا نسير للأمام، وهم من يسيرون للخلف.. صدقني إنه أسوأ من أن تعيش الواقع؛ هو أن تصدقه...

وكأن تلال من الثلوج هبطت فوق رأسي، وأخذت المشاهد تتوالى أمام ناظري.. القطار.. الإحساس الغريب الذي اجتاحني في بداية الأمر، وما كان ذلك إلا لشعوري بشيء غير طبيعي يحدث.. شيء غير سنة الكون.. أننا يجب أن نتقدم للأمام، لا أن نرجع للخلف.

انتبهت إلى أننا اقتربنا من حيث بدأنا..

وأن الرحلة أوشكت على الانتهاء..

إنني يجب أن أتخذ قراري..

هل سأكمل في هذا القطار؟..

أم عليّ الترول؟...

الفهرس